بعد عرض مسرحية جديدة

(رواق مسرح، يظهر من ناحية سلم يؤدي إلى المقصورات والطوابق العلوية، وفي الوسط مدخل إلى القاعة والقسم الخلفي، وفي الناحية الثانية باب خروج. يسمع صوت تصفيق بعيد)..

مؤلف المسرحية[1] (يخرج). كأنني خرجت من حمأة! هذه هي، أخيراً، الهتافات والتصفيقات! المسرح كلّه يهدر!...

هذا هو المجد!... يا رب، كم كان سيخفق قلبي لو كان ذلك قبل سبع أو ثماني سنوات، كم كان سيتحرَّك كل شيء في داخلي! ولكن ذلك منذ زمن بعيد. حينذاك كنت شاباً، جريء التفكير كالصبي. حمداً للعناية الإلهية التي تكتب لي أن لا أتذوق المسرات والإطراءات المبكرة! الآن... برد العمر الرشيد يزرع الحكمة في أي إنسان، فتعرف، أخيراً، أن التصفيق لا يعني الكثير. ويصلح أن يكون مكافأة لكل إنسان: للممثل إذا نفذ إلى كل سر الروح والقلب الإنساني، وللراقص إذا بلغ القدرة على الترميز بالقدمين، وللحاوي أيضاً، لكل هؤلاء يتصاعد التصفيق! سواء للرأس وهو يفكر، أو للقلب وهو يشعر، أو لأعماق الروح وهي تصدح، أو للأقدام وهي ترقص أو للأيدي وهي تقلب الأقداح، الكل يشمله تصفيق متساو.

---

(١) من الطبيعي أن يكون المؤلف شخصية مثالية تنعكس عليه وضع الكوميدي في المجتمع، الكوميدي الذي جعل سوء الاستعمال والتصرف في محيط مختلف الفئات والوظائف مادة للإضحاك. (الملاحظة لنيقولاي غوغول). المعرب.

لا، لســت الآن براغب في أن أغير مــكاني، وأنتقل إلى مقصورة، إلى طابــق علوي، إلى قاعــة، إلى شرفة، أنفذ إلى كل مــكان، وأستمع إلى مختلــف الآراء والانطباعــات، وهي ما تزال طريــة، طازجة، قبل أن تخضــع لاجتهادات ونقاشات هواة الفــن والصحفيين، حين يكون كل إنســان ما يزال تحت تأثــير حكمه الخاص. أنــا بحاجة إلى هذا. أنا كوميــدي. كل الأعمال والأشكال الأدبية الأخرى تخضع لحكم القلــة. والكوميدي وحده يخضع لحكم الجميــع. لكل متفرج الحق عليــه. كل إنسان مهما كانــت رتبته يصير أحد قضاته. آه، كم أود لو يرني كل شخصــ نقائصي وعيوبي! لا يهم حتى لو يضحك مني، لا يهم لــو يحرك شفتيه شعور غير سليم النيــة، متحامل، مستاء، كريه، كل مــا يخطــر على باله، فقط أن يعلن عن نفســه. لا يمكن أن تصدر كلمــة بدون سبــب، وفي كل مكان يمكن أن تنقــدح شرارة الحقيقة. ومَــنْ يعزم على إظهار الجوانب المضحكــة للآخرين يجب، بالطبع، أن يتقبــل بعقل سليم الإشارة إلى الجوانــب الضعيفة والمضحكة فيه. لأحاول، وأظل هنا في الــرواق، طوال خروج الناس من المسرح. لا يمكــن أن لا توجد تعليقــات على مسرحية جديــدة. والإنسان تحت تأثير الانطباع الأول منفعل دائماً، ويتعجل طرحه على آخر. (ينتحي ناحية)..

(يظهر بعض الناس في ملابس معتبرة. يقول أحدهم مخاطباً آخر):

الأفضل أن ننصرف الآن، سيمثلون الآن فودفيل تافهاً.

(الاثنان ينصرفان)

(رجلان معتبران[1] ركينا البنيان ينزلان من السلم).

(١) وردت هذه التسمية بالفرنسية. المترجم.

الرجل المعتبر الأول: جيد لو أن الشرطة لم تبعد مركبتي إلى مسافة بعيدة. ألا تعرف ما اسم تلك الممثلة الشابة.

الرجل المعتبر الثاني: لا، ولكنها حلوة جداً.

الرجـل المعتبر الأول: نعـم، حلوة، ومع ذلـك ينقصها شيء ما، طيـب، اقترح أن نذهب إلى المطعم الجديـد. البارحة قدموا لنا بازلاء طازجة (يقبّل أطراف أصابعه) روعة!.

(الاثنان ينصرفان)

(يجري ضابط يمسكه آخر من يده).

الضابط الثاني: لِنبقَ!

الضابـط الأول: لا، يا أخ. الفودفيل لا يمكـن أن يستهويني بأي شـيء. نحن نعرف هـذه المسرحيات التي تقـدم المأكولات الخفيفة، والخدم بدلاً من الممثلين، والنساء قبح في قبح.

(ينصرفان).

رجـل راق أنيق الثيـاب (عند نزوله من السلـم). الخياط المحتال فصّـل البنطلـون ضيقاً عليّ. طـوال الوقت كنـت متضايقاً جداً في الجلوس. سأعاقبه على ذلك فأماطل في دفع ديوني سنتين. (ينصرف).

رجل راق آخـر أكثر اكتنازاً (يقول لصديقـه بحيوية): صدقني، لـن ولن يقعد معـك على طاولة القمـار. إنه لن يلعـب بأقل من مئة وخمسـين روبـلاً. أنا أعرف ذلـك جيداً، لأن صهـري بافنوتيف، يلعب معه كل يوم.

مؤلف المسرحية (مع نفســه): حتى الآن لم ينطق أحد بكلمة عن الكوميديا.

موظـف في أواسط العمر (يخرج باسطـاً ذراعيه): الشيطان يعلم أي شيء هذا! شيء... شيء.... لا شبيه له مطلقاً. (ينصرف).

سيد قليــل الاهتمام بالأدب (يخاطب آخر): على أية حال، يبدو أنها مترجمة!

الآخــر: يا سلام! كيف أنها مترجمــة! الحدث يجري في روسيا، وفيها عاداتنا ورتبنا أيضاً.

السيــد القليل الاهتمام بالأدب: على أية حــال، أتذكر شيئاً منها باللغة الفرنسية، ليس تماماً من هذا القبيل.

(ينصرفان).

واحــد من متفرجين اثنــين (خارجــين أيضــاً): الآن لا يمكن أن نعرف شيئاً. انتظر ماذا سيقولون في المجلات، وعندئذٍ ستعرف.

اثنــان في معطفين مخوصريــن (أحدهما للآخــر): طيب، كيف؟ بودي لو أسمع رأيك في الكوميديا.

المعطف الثاني (يحرك شفتيه حــركات دالة وترتسم على سيمائه علائــم الوقار): نعم، بالطبع، لا يجوز القــول إنها تخلو من.... إلى حــد ما... ثم مَــنْ يعارض، بالطبع، أن لا يكون هنــاك... أين، كما يمكــن أن يقال... ولكــن عمومــاً.... (يطبق شفتيــه بإيجاب نعم، نعم!...

(ينصرفان).

المؤلــف (لنفسه): طيب، هذان لم يقــولا الشيء الكثير... ولكن ستكون تعليقات: أرى إلى الأمام قليلاً من يلوحون بأذرعهم بحرارة.

(ضابطان).

الأول: لم أضحك قط مثلما ضحكت هنا.

الثاني: أظنها كوميديا ممتازة.

الأول: لا، لا. لننتظر ماذا سيقولون في المجلات. يجب الخضوع لحكم النقد... انظر، انظر! (يلكزه من يده).

الثاني: ماذا؟

الأول(يشير إلى واحد من اثنين ينزلان من السلم): أديب!

الثاني (باستعجال): مَنْ؟

الأول: ذاك! شش! لنسمع ماذا سيقول.

الثاني: ومن الآخر الذي معه؟

الأول: لا أعرف. شخص نكرة.

(الضابطان ينتحيان جانباً ليفسحا لهما المجال).

النكرة: لا أستطيع أن أحكم على قيمتها الأدبية، ولكن يبدو لي أن فيها ملاحظات لاذعة الذكاء، لاذعة، لاذعة.

الأديب: عفوك، ما هو اللاذع الذكاء فيها؟ ما هؤلاء الناس الوضعاء المصورون فيها، وأية لهجة؟ النكات مسطحة للغاية، بل وسفيهة.

النكرة: هذا شيء آخر، قلت لا أستطيع أن أحكم على قيمتها الأدبية. لاحظت فقط أن المسرحية مضحكة، جلبت المتعة.

الأديب: بل وليست مضحكة. عفوك، ما هو المضحك فيها. وماهو الممتع؟ الموضوع غير محتمل الوقوع. كل شيء متناقض مع التفكير السليم. بلا حبكة، ولا حدث، ولا شيء يستحق الاعتبار.

النكرة: أي نعم، ليس لدي أي اعتراض على ذلك. من الناحية الأدبية، من الناحية الأدبية ليست مضحكة، ولكن من الناحية، إذا أمكن القول، من جهة فيها....

الأديب: ولكن ماذا فيها؟ أرجوك، حتى هذا غير موجود! ثم أية لغة حوار؟ مَنْ يتكلم بهذا الشكل في مجتمعنا الراقي؟ طيب، قل لي أنت، هل أنا وأنت نتكلم بهذا الشكل؟

النكـرة: هذا صحيـح. ملاحظتك دقيقة جـداً. في هذا بالذات فكـرت مع نفسـي، الحوار يفتقـر إلى النبـل. كل الشخصيات تبدو وكأنها لا تقدر أن تخفي طبيعتها الوضيعة. هذا صحيح.

الأديب: أها، وتمتدحها أيضاً!

النكـرة: ومَنْ يمتدحهـا؟ أنـا لا أمتدحهـا. أرى الآن بنفسي أن المسرحيـة تافهة. ولكـن لا يمكن الإلمـام بذلك دفعة واحـدة. أنا لا أستطيع أن أحكم على القيمة الأدبية.

(الاثنان ينصرفان).

أديـب آخر (يدخل بصحبة متفرجين يحدثهـم مشمراً ذراعيه): صدقوني أنا أعرف هذا الأمر. مسرحية مقززة! مسرحية قذرة، قذرة! لا يوجـد فيها أي شخص حقيقي. الـكل كاريكاتور! لا يوجد هذا في الواقـع. صدقوني. لا يوجد، وأنا أعـرف ذلك أحسن. أنا نفسي أديب. يقولون: حيوية، حدة البصيرة... ولكن كل ذلك هراء، إنهم أصحابه لا غـير، أصحابه يمتدحونـه، أصحابه فقـط! سمعت أنهم يكادون يرفعونه إلى مصـاف فونفيزين وكوميدياته. ولكن المسرحية لا تستحـق حتى أن تسمى كوميديا. إنهـا مهزلة، مهزلة، ثم مهزلة، وأفضـل مهزلة. أسوأ وأتفه كوميدية لكوتسيبـو[1] هي بالقياس إليها مونبلان أمـام مرتفعات بولكوفو. سأبرهن علـى ذلك لهم جميعاً، أبرهـن حسابيـاً مثل اثنـين في اثنين. مجـرد أن أصدقـاءه وأصحابه امتدحوه أكثر من اللازم والظاهر أنه الآن يعتبر نفسه شكسبير تقريباً. الأصحـاب عندنا يمتدحون دائماً. فمثلاً. هـذا بوشكين أيضاً. لأي شـيء تتحدث كل روسيا عنه الآن؟ كل ذلك من الأصحاب. هتفوا،

(١) كوتسيبو كاتب رجعي كانت أعماله الدرامية تتسم بالزيف ورومانسية الشخصيات. المترجم.

وهتفوا، وبعد ذلـك صارت روسيا كلها تهتف في أثرهم. (ينصرف مع المتفرجين).

(الضابطان يتقدمان، ويحتلان مكانهم).

الأول: هذا حق، هذا حق، حق تماماً. مهزلة بالضبط. كنت أقول ذلك من قبل. مهزلة غبية مسنودة من قبل الأصحاب. بصراحة كنت حين أتقزّز من التفرج على أشياء كثيرة فيها...

الثاني: ولكن كنت تقول لم أضحك قط مثلما ضحكت هنا؟

الأول: مـرة أخرى أقول هذا شيء مختلف. أنت لا تفهم، وتحتاج إلى توضيـح. ماذا في هذه المسرحية؟ أولاً بـلا حبكة تماماً، والحدث غير موجـود أيضاً، ولا شيء يستحق الاعتبـار إطلاقاً، كل شيء غير محتمل الوقوع، وكل شيء كاريكاتوري فضلاً عن ذلك.

(ضابطان آخران في الخلف).

أحدهما (للآخر): من يناقش في ذلك؟ واحد من جماعتك، كما يبدو؟

(الآخر بعد أن نظر إلى وجه المتحدث، لوّح بيده).

– يعني، بليد؟

الثـاني: لا، لا بشكل... عنده عقـل، ولكن لدى صدور المجلة، وإذا مـا تأخرت المجلة في الصدور، يفرغ رأسه من كل شيء. ولكن لنذهب على العموم.

(ينصرفان).

(اثنان من هواة الفن).

الأول: لست على الإطلاق من الذين يلجأون إلى الكلمات البذيئة فقـط، من مثل قذرة، مقززة، من أسلوب سـيء. أمر مثبت تقريباً أن مثل هـذه الكلمات، في معظم الأحيان، تخرج مـن أفواه الذين هم

أنفسهـم من أسلوب مشكوك فيه، يتحدثون عن الصالونات، ولكن الـرواق هو أقصى ما يسمح لهم بدخوله. غـير أنني لا أقصدهم في كلامي. أنا أتحدث عن خلو المسرحية من الحبكة تماماً.

الثـاني: نعـم، إذا فُهمت الحبكة بالمعنى الـذي تُفهم به عادة، أي بمعنـى وجود عقدة غرامية، فهي غير موجودة بالفعل. ولكن الوقت قد حان كما أظن للكف عن التشبث حتى الآن بتلك الحبكة الأبدية. يكفـي أن نتمعّـن فيما حولنـا لنعرف أن كل شـيء في الدنيا قد تغيّر منذ زمان. الدراما تحبك الآن بشكل أقوى بالنزعة إلى الحصول على منصب نافع، بتمجيد النفس وحـط الآخر مهما كلّف الأمر، والثأر مـن الإهمال أو مـن السخرية. أليسـت الرتبة، الرأسمـال النقدي، الزواج المصلحي أكثر نفعاً من الحب الآن؟...

الأول: كل ذلك جيد. ولكن في هذه الناحية أيضاً لا أجد حبكة في المسرحية، على كل حال.

الثـاني: لا أريد أن أؤكد الآن هل الحبكة موجودة في المسرحية أو غير موجـودة. بل أقول فقط إن الناس يبحثـون عن الحبكة الخاصة، ولا يريدون أن يروا الحبكة العامة. الناس الآن تعوّدوا، ببساطة نفس، علـى أولئك العشاق الدائميين الذين لا يمكن أن تنتهي مسرحية دون أن يتزوجـوا. هذه حبكة، بالطبع، ولكـن أية حبكة؟ كحبكة منديل معقود مـن طرفه بالضبط. ولكن، يجب أن تُحبك الكوميديا تلقائياً، وبـكل مجموعهـا، في عقـدة واحدة كبـيرة وشاملة. يجـب أن تعم الحبكة جميع الشخصيات، لا واحداً أو اثنين منهم، وتمس ما يقلقهم بهـذا الشمول أو ذاك. جميع الشخصيات أبطال هنا. انسياب وسير المسرحيـة يحدثـان رجّة في الآلـة كلها، وما مـن دولاب يظل واقفاً باعتباره صدئات، ولا يشترك في العملية.

الأول: ولكـن الجميع لا يمكن أن يكونـوا أبطالاً. واحد أو اثنان منهم يسيّران الآخرين.

الثـاني: لا يسيّرانهـم قطعاً، بـل يتفوّقان عليهـم. في الآلة توجد دواليـب تتحـرك بشـكل أقـوى وأكثر ظهـوراً، ويمكنـك أن تسمى بالرئيسـة فقط، ولكن الفكـرة وحدها تسيّر المسرحيـة. وبدونها لا توجد وحدة في المسرحية. وكل شيء يصلح أن يكون حبكة: الرعب نفسه، خوف التوقّع، خطر القانون المقبل من بعيد...

الأول: ولكن ذلك يعني إعطاء الكوميديا دلالة أكثر شمولاً.

الثـاني: ولكن أليـس ذلك هـو رسالتها المباشـرة والحقيقية؟ منذ البدايـة كانت الكوميديا إبداعاً اجتماعياً شعبياً، أو هذا، على الأقل، مـا أبداه أبوها الشرعـي أرسطو فان، وبعد ذلـك دخلت في المضيق الضيّـق للحبكة الخاصـة. وأدخلت موضوعة الحـب حبكة واحدة لازمة. ومع ذلك فما أضعف هـذه الحبكة عند أحسن الكوميديين! وما أتفه أولئك العشاق المسرحيين في حبهم الكارتوني!

الثالـث (يقـترب ويضربه علـى كتفه ضربة خفيفـة): لست على حق. الحب مثل أية عاطفة أخرى يمكن أن يدخل أيضاً في الكوميديا.

الثـاني: أنا لا أقـول لا يمكن أن يدخل. ولكـن الحب والعواطف الأخـرى الأكثر سمـواً، لا تستطيع أن تترك انطباعـاً رفيعاً، إلا حين تتطور بكل عمقها. وإذا ما انشغلت بها، فإنك ستضحّي حتماً بكل الأشيـاء الأخـرى. عند ذاك سيتضاءل كل ما يشـكل بالذات جوهر الكوميديا، وتختفي أهمية الكوميديا الاجتماعية بالتأكيد.

الثالـث: يعني لا بـد أن يكون موضوع الكوميديـا وضيعاً؟ إذاً، ستكون الكوميديا نوعاً وضيعاً أيضاً.

الثاني: هذا سيبدو للذي سينظر إلى الكلمات، ولا ينفذ إلى صلب القضية. ولكن ألا يمكـن للإيجابي والسلبي أن يخدما هدفاً واحداً. ألا يمكن للكوميديا والتراجيديا أن تعبّرا عن نفس الفكرة السامية؟ ألا

ترسم تقلبات نفس الخسيس النذل، كلها حتى أصغر الصغائر، صورة للإنسان النزيه؟ ألا يتيح كل هذا التراكم للحقارات والتجاوزات على القوانـين والخروج عن العدالة معرفة واضحة بما يتطلب منا القانون، والواجب والعـدل؟ الماء البارد والساخن في يدي طبيب ماهر يعالج نفسس الأمراض بنجاح متسـاو، وفي يدي الموهوب يمكن لكل شيء أن يكـون أداة لما هو جميل، شـرط أن يستهدي بالفكرة السامية لأن يخدم الجميل.

الرابع (يقترب): ماذا يمكن أن يخدم الجميل؟ عمّ تتحدثون؟

الأول: نشـأ نقاش بيننـا عن الكوميديا. نحـن جميعاً نتكلم عن الكوميديـا بشكل عام، وحتى الآن لم يقل أحـد شيئاً عن الكوميديا الجديدة. فماذا تقول أنت؟

الرابـع: أقول: توجد فيها موهبة، حـدة البصيرة للحياة، والكثير من الأشياء المضحكة والصادقة، المستقاة من الواقع ولكن بشكل عام ينقص المسرحية شيء. فأنت لا ترى عقدة ولا حل العقدة. والغريب أن كتابنا الكوميديين لابـد أن يتطرقوا إلى الحكومة. بغيرها لا تنعقد عندنا أية كوميديا.

الثالث: هذا صحيح. ولكن هذا من الناحية الأخرى شيء طبيعي جداً. فنحن جميعاً تابعون للحكومـة، كلنا تقريباً نخدم. ومصالحنا كلهـا مرتبطة بالحكومة بهذا القدر أو ذاك. يعني ليس من الغريب أن ينعكس ذلك في أعمال كتابنا.

الرابـع: حسناً، لتكن هذه الرابطـة محسوسة. ولكن المضحك أن أيـة مسرحية لا يمكن أن تنتهي بـدون الحكومة. إنها تظهر حتماً مثل قدر لا محيص عنه في المسرحيات التراجيدية عند الإغريق القدامى.

الثاني: يعني أن هذا شـيء لا إرادي عند كتابنا الكوميديين، يعني

أن هذا يشكل صفة مميزة لمسرحياتنا الكوميدية. صدورنا تنطوي على إيمـان خف بالحكومة ومـاذا في ذلك؟ لا ضير فيـه، ياليت الحكومة تسمع دائمـاً وفي كل مكان تذكيراً لرسالتهـا لأن تكون ممثل العناية الإلهيـة على الأرض، وأن نؤمن نحن بهـا، كما آمن القدامى بالقدر الذي كان يعاقب الجرائم.

الخامسـ: مرحبـاً. يـا سـادة! لا أسمـع إلا كلمـة «حكومة». الكوميديا أثارت الهتافات والأحاديث...

الثـاني: الأفضل أن نتحـدث عن هذه الأحاديـث والهتافات في بيتي. لا هنا، في رواق المسرح.

(ينصرفون).

(بعض المحترمين الحسني الثياب يظهرون واحداً وراء الآخر).

رقـم ١: طيب، هذا رأيي. هذا صحيح وصحيـح أن ذلك وما أسوأ منه يحدث عندنا أيضاً في بعض الأماكن. ولكن ما الغاية، ولأي شيء يبرز ذلك؟ و لم هذه العروض ما الفائدة منها؟ وضحوا لي ذلك! أي حاجـة لي في أن أعرف أن في مكان مـا يوجد محتالون؟ أنا بكل بساطة... لا أفهم ضرورة مثل هذه العروض. (ينصرف).

رقم ٢: لا، هذا ليس استهجاناً للعيوب، بل ازدراء مقزز لروسيا. هذا هو. هذا يعين إظهار الحكومة نفسها في مظهر سيئ. لأن كشف الموظفـين السيئين، وأعمـال استغلال النفوذ التـي تحصل في مختلف الفئـات يعني كشف حكومـة نفسها. قطعاً لا ينبغـي حتى السماح بمثل هذه العروض. (ينصرف).

(يدخل السيد أ والسيد ب، وهما رجلان من رتبتين معتبرتين).

السيد أ: أنا لا أتكلم عن هذا. على العكس نحن بحاجة إلى إظهار أعمـال استغلال النفوذ. يجب أن نـرى تجاوزاتنا. وأنا لا أشاطر أبداً

آراء الوطنيين الكثيرين المتحمسين أكثر من اللازم، ولكن يبدو لي قد يكون فيها الكثير جداً مما هو محزن.

السيد ب: وددت كثيراً لو كنت قد استمعت إلى ملاحظة رجل متواضع الثياب جداً كان يجلس على مقربة مني في مقاعد القاعة.... آه، هذا هو نفسه!

السيد أ: مَنْ؟

السيد ب: هذا هو الرجل المتواضع الثياب جداً. (يخاطبه) نحن لم ننه بعد الحديث الذي كانت بدايته طريفة بالنسبة لي.

الرجل المتواضع الثياب جداً: وأنا بصراحة، مسرور جداً بأن أواصله. قبل لحظة فقط سمعت كلاماً يقول إن كل ذلك غير صحيح، وإنه استهزاء بحكومتنا، وبعاداتنا، وماكان ينبغي عرضه إطلاقاً. وقد جعلني ذلك أسترجع في ذهني، وأحتوي المسرحية كلها. وأعترف أن ما تعبر عنه الكوميديا يبدو لي الآن أكثر روعة. ففيها، كما يلوح لي، يُنحر النفاق بالضحك أشد وأعمق من أي شيء آخر قناع الاحتشام الذي تختفي وراءه الوضاعة والخسة، المحتال الذي يعوج خده ليتخذ سمة الإنسان الموالي. بصراحة شعرت بالفرح، وأنا أرى كلمات الولاء تخرج مضحكة من شفتي محتال، والقناع الذي يلبسه يثير الضحك الشديد لدى الجميع من أول القاعة إلى أعلى طابق في المسرح. ويوجد بعد هذا أناس يقولون لا حاجة إلى إخراج ذلك على المسرح؟ لقد سمعت ملاحظة أبداها رجل معتبر جداًن كما بدا لي: «ماذا سيقول الشعب حين يرى أن مثل هذه الأعمال لاستغلال النفوذ تحصل عندنا؟».

السيد أ: بصراحة، وأرجو المعذرة، أنا أيضاً أطرح على نفسي هذا السؤال لا إرادياً، ماذا سيقول شعبنا، وهو يرى كل هذا؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: ماذا سيقول؟ (يتنحى)

(يدخل اثنان في قفطانين).

القفطـان الأزرق (للقفطان الرمادي): أعتقـد أن الرؤساء كانوا شطاراً، ولكنهم امتقعوا جميعاً، حين أطل السيف القيصري.

(ينصرفان).

الرجل المتواضع الثياب جداً: هذا ما سيقوله الشعب، هل سمعتم.

السيد أ: ماذا؟

الرجـل المتواضع الثياب جـداً: سيقول: «أعتقـد الرؤساء كانوا شطاراً، ولكنهم امتقعوا جميعـاً، حين أطل السيف القيصري!» هل سمعتـم كـم أن الإنسان يصـدق بحاسته الطبيعيـة وبشعوره؟ وكـم أن العـين البسيطة للغايـة صادقة، إذا لم تضببهـا النظريات والأفكار المستقاة مـن الكتب، بل تستقيها من طبيعـة الإنسان نفسها! ولكن أليس واضحـاً بجلاء أن الشعب بعد مثل هـذا العرض يحصل على إيمـان أكثر بالحكومة؟ إنـه بحاجة إلى مثل هـذه العروض. وليفصل الحكومة عن السيئين من القائمين بشؤونها. وليرَ أن أعمال استغلال النفـوذ لا تأتـي من الحكومـة، بل مـن الذين لا يفهمـون متطلبات الحكومـة، ومـن الذين لا يريـدون الاستجابـة للحكومـة. وليرَ أن الحكومـة شريفة، وأن عينها الساهرة تراقب الجميع بالتساوي، وأنها ستلاحـق عاجـلاً أم آجلاً المتجاوزيـن على القانـون وعلى الشرف وواجـب الإنسان المقدس، وسيمتقع أمامهـا ذوو الضمائر الملوّثة. نعم، يجب على الشعب أن يرى هذه العروض. صدقوني. حتى وإن كان قـد عانى بنفسه من التضييقات والمظالم فإنه سيخرج منفّساً عن نفســه، بعد مثل هـذا العرض، وبإيمان قوي بالقانـون السامي الذي لا تأخـذه سنة من نـوم. وتعجبني أيضاً ملاحظـة أخرى: «سيكون

للشعب رأي سيئ في رؤسائه». يعني أنهم يتصورون أن الشعب هنا فقط وهو في المسرح، يرى لأول مرة رؤساءه، وإذا كان أحد العمد المحتالين يعصره بين مخالبه في مكان سكناه، فإنه لن يفطن إلى ذلك، ولكنه يذهب إلى المسرح ليلمّ بالأمر ويفطن. إن هؤلاء في الحقيقة، يعتبرون شعبنا أغبى من خشبة، غبياً إلى درجة أنه لا يستطيع أن يفرق بين الفطيرة المحشوة باللحم، والفطيرة المحشوة بالعدس. نعم، الآن يبدو لي حتى خلو المسرح من شخصية نزيهة شيئاً جيداً. إذا قدمت للرجل العزيز النفس وسط كثرة من الجوانب السيئة جانباً واحداً حسناً، فإنه سيخرج من المسرح بكبرياء. نعم، جيد أن المسرحية قدمت فقط الشواذ والعيوب التي هي مجلبة عار شديدة، إلى درجة أن الناس لا يريدون أن يتواطئوا معها، ويخجلون حتى من الاعتراف بأن ذلك ممكن.

السيد أ: ولكن هل يعقل أن يوجد عندنا مثل هؤلاء الناس بالضبط؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: اسمحوا لي بأن أقول لكم بخصوص ذلك. أنا لا أدري لماذا أشعر بالحزن، كلما أسمع مثل هذا السؤال. أستطيع أن أتحدث معكم بصراحة: فأنا أرى في ملامح وجهيكما ما يشجعني على الصراحة. الإنسان قبل كل شيء يطرح السؤال: «هل يعقل أن يوجد مثل هؤلاء الناس؟» ولكن هل سمعنا إنساناً يطرح هذا السؤال: «هل يعقل أنني نفسي خال تماماً من هذه العيوب؟» لم نسمع قط، لم نسمع! طيب، سأتحدث معكم بقلب مفتوح، فإن لي قلباً طيباً، وصدري ينطوي على الكثير من الحب، ولكن ليتكم تعرفون أية جهود نفسية وصدمات روحية اقتضتني لأتجنب السقوط في انحرافات معيبة كثيرة، يسقط فيها الإنسان لا إرادياً، في عيشه مع الناس! وكيف يمكن أن أقول الآن إنني في هذه اللحظة مبرأ من

تلك الانحرافات التي كنا نضحك منها جميعاً قبل عشر دقائق فقط، وضحكت أنا أيضاً منها.

السيد أ: (بعد برهة من الصمت). كلماتك تدعو إلى التفكير الشديد، بصراحة، ولمّا أتذكر كلماتك، أتمثل لنفسي كيف جعلتنا التربية الأوربية متكبرين، وكيف حجبتنا عن أنفسنا ذاتها، وكيف ننظر باستعلاء وبازدراء شديد إلى الذين لم يحصلوا على تلميع ظاهري مثلنا، وكيف يعتبر كل واحد منا نفسه قدّيساً إلا شعرة ويتحدث دائماً عن الأعمال والأفعال السيئة عند الآخرين، تغتم نفسي لا إرادياً، بصراحة... ولكن اعذرني على عدم تواضعي فأنت، على كل حال، غير مبرأ منه أيضاً هل لي أن أعرف مع مَنْ يسعدني أن أتحدث؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: لست سوى واحد من أولئك الموظفين الذين تتقمص شخصيات المسرحية وظائفهم ومناصبهم، وقد قدمت من بلدتي منذ يومين.

السيد ب: ما كان هذا ليخطر على بالي. وهل يعقل أنك لا تتصور أن من المهين، بعد هذا، أن تعيش وتخدم مع هؤلاء الناس؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: من المهين؟ هذا ما سأقوله لك بهذا الخصوص، أعترف بأنني في أحيان كثيرة أفقد صبري. في بلدتنا ليس كل الموظفين من الصنف النزيه، وغالباً ما تعمل المستحيل لكي تفعل شيئاً طيباً. وقد فكرت في ترك الوظيفة عدة مرات، ولكن الآن، وبعد هذا العرض بالذات، أشعر بهمة ونشاط مع قوة جديدة على مواصلة مجال عملي. وجدت سلواي في التفكير بأن النذالة عندنا لن تظل مستورة، أو طليقة العنان، وأنها على مرأى من جميع الناس الشرفاء مذبوحة بالسخرية، وأن هناك قلماً لا يتماهل عن فضح تصرفاتنا النذلة، على الرغم من أن ذلك لا يرضي كبرياءنا القومية، وأن هناك حكومة شريفة تسعى إلى أن تجعل جميع الذين يعنيهم الأمر

يـرون ذلك رأي العين، وهذا وحده يمدني بالحماس لمواصلة وظيفتي النافعة.

السيـد أ: اسمح لي بأن أعرض عليك اقتراحاً، أنا أشغل وظيفة في جهـاز الدولة مهمة إلى حدّ ما. وأحتـاج إلى معاونين شرفاء ونزيهين حقاً. أقترح عليك وظيفة ستوفر لك مجالاً موسعاً للعمل، ومنفعة أكثر بما لا يقاس، وستكون في موقع مرموق.

الرجـل المتواضع الثياب جداً: اسمـح لي بأن أشكرك بكل ما في قلبـي وروحي على هـذا العرض، واسمح لي، في الوقـت ذاته، بأن أرفضـه. فـإذا كنـت أشعر بأنني نافـع في عملي، فهل مـن النبل من جانبـي أن أتخلـى عنه؟ وكيف أستطيع أن أتركـه، ليست لدي الثقة الراسخـة في أن الذي سيخلفني لن يكون شاطـراً سيأخذ بارتكاب مظـالم؟ أما إذا كنت قد عرضت عليَّ ذلـك بشكل مكافأة، فاسمح لي بـأن أقول لك إنني صفقت لمؤلـف المسرحية كما صفق الآخرون علـى حد سـواء، ولكني لم أطلـب أن يطل على الجمهـور زيادة في الثناء. فما حاجته إلى مكافـأة؟ مسرحيته راقت للناس، فأثنوا عليها. أمـا هو، فقـد أدى واجبه لا غير. ولكن الوضع قـد وصل عندنا في الحقيقـة إلى حد أن الإنسان، ليس فقط حين يجترح مأثرة، بل لمجرد أنـه لا يلحق بأحد أذى في الحيـاة وفي الوظيفة، يعتـبر نفسه فاضلاً لا يضـارع، ويغضب عن جد، حين لا يلتفـت إليه، ولا يكافأ. فتراه يقول: «أواه، لقد عشت طوال عمري بنزاهة، و لم أقدم على أية نذالة تقريبـاً، فكيف لا أمنح رتبة ولا نيشاناً؟» لا، أعتقد أن الذي لا يقدر أن يكون نبيلاً بدون تشجيع، غير أهل لأن أثق بنبله. فإن نبله المزّيف لا يساوي فلساً واحداً.

السيـد أ: على الأقل لا تبخل عليَّ بالتعـاون معك؟ اعذرني على لجاجتي، فأنت ترى أنها نتيجة احترامي الصادق. أعطني عنوانك.

الرجـل المتواضـع الثياب جـداً: تفضل هذا عنـواني. ولكن كن علـى ثقـة بأننـي لا أسمح لـك باستغلالـه، فسأجيء إليـك غداً في الصبـاح. أرجـو المعـذرة، لست متربياً علـى المجتمـع الراقي، ولا أحســن الكلام.... ولكنني صادفت مثل هذا الاهتمام الأريحي في رجل دولـة، هذا الطموح إلى الخير... عسى الله أن يحيط كل عاهل بأمثالك من الناس. (ينصرف مستعجلاً).

السيد أ (يقلب البطاقة في يده): ها أنا أنظر إلى هذه البطاقة، وإلى هـذا الاسم المكتـوب عليها، والذي لا أعرفـه، فأشعر بالانشراح في صدري، فقد انقشع الانطباع المحزن الأول من تلقاء نفسه. حفظك الله، يـا روسيا، يامـن لا نعرفك إلا قليـلاً! في أصقاعك البعيدة، في ركن منسي منك، ينزوي رجل فريد كاللؤلؤة، وليس هو الوحيد، في أغلـب الظن. إن هؤلاء، مثل التماعـات الأحجار الكريمة، منتشرون وسـط غرانيتـه الغليظ الداكن. هنـاك إحساس عميـق بالسلوى من هـذه الظاهرة، وقد تنورت روحي بعد اللقاء مع هذا الموظف، مثلما تنورت روحه بعد العرض. وداعـاً! شكراً لك على إتاحة هذا اللقاء لي. (ينصرف).

السيد ج (يقترب من السيد ب): من هذا الذي كان معكم؟ يبدو أنه وزير؟

السيـد د (يقترب من الجهة الأخرى): رحمـاك، يا أخ، ما هذا؟ خبرني بحق الرب!

السيد ب: ماهو؟

السيد د: طيب، كيف يخرجون ذلك على المسرح؟

السيد ب: و لم لا؟

السيد د: طيب، احكم بنفسك، كيف هذا حقاً؟ دائماً عيوب في

عيوب. وأي قدوة يقدم هذا للمشاهدين؟

السيد ب: ولكن من يتباهى بالعيوب؟ إنها معروضة للسخرية.

السيد د: ومع ذلك، يا أخ، فالاحترام واجب... وهذا العرض يفقد الاحترام نحو الموظفين والوظائف.

السيد ب: هذا لا يفقد الاحترام لا نحو الموظفين ولا نحو الوظائف، بل نحو الذين يسيئون أداء وظائفهم.

السيد ج: ولكن اسمح لي بأن أذكر، على أية حال، أن في كل ذلك قدراً معيناً من الإهانة التي تشمل الجميع إلى هذا الحد أو ذاك.

السيد د: بالضبط. هذا ما أردت أن أبديه بنفسي. هذه إهانة شاملة بالذات. اليوم مثلاً يعرضون على المسرح موظفاً من مرتبة دنيا، وغداً... أظنهم سيعرضون آخر من مرتبة أرقى.

السيد ب: وماذا في ذلك؟ الفرد وحده لا يُمس. ولكن إذا ابتكرت أنا شخصية لا على التعيين ونسبت لها العيوب التي تنشأ بيننا عادة، ومنحتها المرتبة التي طرأت على بالي، ولتكن مرتبة أرقى، وقلت إن هذا الموظف من هذه المرتبة الراقية ليس كما يجب، فماذا في ذلك؟ ألا يوجد محتال من بين موظفي المرتبة الراقية؟

السيد د: ذهبت بعيداً، يا أخ، كيف يمكن أن يكون الموظف في المرتبة الراقية محتالاً؟ الموظف من المرتبة الدنيا، ربما.... لا، ذهبت بعيداً!...

السيد ج: لماذا يعرضون السيئ، ولماذا لا يعرضون الحسن، اللائق بأن يُحتذى؟

السيد ب: لماذا؟ سؤال غريب: «لماذا؟» أشياء كثيرة يمكن أن تضع قبال «لماذا» هذه. لماذا لم يلجأ أحد الآباء إلى الكلمات والمواعظ، بغية انتشال ابنة من الحياة غير المستقيمة، بل أخذه إلى مارستان،

حيث برزت أمامه الآثار الرهيبة للحياة غير المستقيمة بكل فظاعتها؟ لماذا أقدم على ذلك؟

السيد ج: ولكن اسمح لي بأن أقول: إن هذه، إلى حد ما، قروحنا الاجتماعية التي يجب أن تخفى، ولا أن تعرض.

السيد د: هذا صحيح. أنا موافق على ذلك كلياً. يجب أن يخفى السيئ عندنا، لا أن يعرض على الملأ.

السيـد ب: لو كان أحد غيرك قال هذه الكلمات، لقلت إنها من الرياء، وليس من الحب الحقيقي للوطن. يعني، في رأيك، ينبغي فقط إخفاء هذه التي سميتها قروحاً اجتماعية، وعلاجها من الخارج على نحـو ما، حتى لا تكون مرئية في هذه اللحظة، ولا يهم أن تستشري العلـة في الداخل. لا يهم أن تنفجر، وتكتشـف عن أعراض لا ينفع معهـا عنـد ذاك أي علاج. لا يهـم هذا. أنت لا تريـد أن تعرف أننا بدون العظة المخلصة الصادقة، بدون الفهم المسيحي لخطايانا، بدون تضخيمها في عيوننـا، لا نملك القوة على الارتفاع فوقها، ولا القوة علـى السمو بالروح إلى أعلى ماهـو محتقر في الحياة. إنك لا تريد أن تعـرف ذلك! وليبق الإنسان أصـمّ، وليقض حياته غافياً، ولا يحرك ساكناً حين يرى الفظاعات، دعه لا يبكي في أعماق قلبه، دعه يخدر نفسـه، إلى حد لا تحركها الزعـازع! لا.... وأرجو المعذرة! الأنانية البـاردة هي التي تحـرك شفتين تنطقـان بمثل هذه الأقـوال، لا حب الإنسانية الطاهر التقي. (ينصرف).

السيـد د: (بعد صمت قصير). لماذا أنت صامت؟ ياله من شاطر! أية كلمات كبيرة تفوه بها!

(السيد ج يصمت) .

(يتابـع) يستطيـع أن يقـول كما يقـال ما يشاء، ولكـن هذه هي

قروحنا المشتركة كما يقال.

السيد ج (جانباً): أوه، أعجبه النطق بهـذه القروح! وسيقولها للغادي والرائح!..

السيد د: بهذا الشكل أستطيع أن أقول ما شئت من هذه الأقوال. ولكن ما الفائدة؟... آه، هذا الأمير ن: تمهّل، يا أمير!

الأمير ن: ما الخبر؟

السيد د: لنتحدث قليلاً، توقف! ما رأيك في المسرحية؟

الأمير ن: مضحكة.

السيد د: ولكن لماذا يعرض؟ أي شيء هو؟

الأمير ن: ولماذا لا يعرض؟

السيد د:ولكن احكـم بنفسك، كيف يجرؤ هذا؟ نفاجأ بمحتال على المسرح. ولكن هذه قروحنا.

الأمير ن: أية قروح؟

السيد د: هذه قروحنا، قروحنا الاجتماعية، إذا أمكن القول.

الأمـير ن (بانزعاج): خذها لك! ولتكـن قروحك، لا قروحي! لماذا تدسّها عليَّ؟ عليَّ الآن أ ن أعود إلى البيت. (ينصرف).

السيـد د (يتابـع): ولكن ما هـذا الهراء الذي قاله هنـا؟ يريد أن يقـول: الموظف من المرتبة الراقية يمكن أن يكون محتالاً. طيب، يمكن التساهل مع الموظف من المرتبة الدنيا...

السيد ج: على كل حال لنذهب. كفى كلاماً. أظن الجميع عرغوا الآن أنـك موظف من المرتبة الراقية. (جانبـاً) هناك أناس عندهم فن التشهير بكل شيء. وهم يقدرون أن يجعلوا فكرتك، عندما تكررُها، مبتذلة إلى حد أنك تحمرّ خجلاً منها. وإذا أطلقت قولاً أحمق قد يمرّ

دون أن يلحظ، ولكن يطلع هاو وصديق يظل يكرره، حتى يجعله أسوأ مما هو. إن هذا شيء مزعج حقاً، وكأنما أوقعك في وحلة.

(ينصرفان)

(عسكري ومدني يتقدمان سوية)

المدني: هذا أنتم، السادة العسكريين! تقول «هذا ينبغي عرضه على المسرح»، وأنت مستعد مرتين أن تضحك من موظف مدني. ولكن إذا مسوا عسكريين، أو قالوا فقط إن في الفوج الفلاني ضباطاً، ولا حاجة إلى ذكر الانحرافات المعيبة، بل مجرد القول إن هناك ضباطاً من لون سيئ، بسلوكيات غير لائقة، فأنت مستعد، لهذا وحده، أن ترفع شكوى إلى مجلس الدولة نفسه.

العسكري: ولكن اسمع. مَنْ أنا باعتبارك؟ بالطبع، بيننا دون كيشوتيون وعلى شاكلتهم، ولكن صدق أيضاً بأن هناك أناساً حصيفين حقاً سيسرون إذا عُرض للسخرية العامة من يشين رتبتهم. وما الضير في ذلك؟ اعرضوه، وسنكون مستعدين إلى مشاهدته كل يوم.

المدني (جانباً): المرء دائماً يصيح: «اعرضوه، اعرضوه!»

وحين يعرض يغضب.

(ينصرفان).

(معطفان مخوصران).

المعطف الأول: عند الفرنسيين أيضاً، على سبيل المثال، ولكن كل ذلك عندهم لطيف جداً. أنت تذكر الفودفيل الذي رأيناه يوم أمس. تخلع ثيابها، وتستلقي في فراشها، وتأخذ سلطانية السلاطة من الطاولة، وتضعها تحت السرير. هذا بالطبع غير لائق، ولكنه لطيف. كل ذلك يمكن أن يشاهد، وليست فيه إهانة.... زوجتي

وأولادي يذهبون كل يوم للمسرح. أما هنا، فماذا في الحقيقة؟ خسيس، ريفي، ماكنت سأدخله حتى إلى رواق بيتي، يستلقي وهو في حذائه الطويل، ويتثاءب أو يسلّك أسنانه. فأي شيء هذا حقاً؟ على أي منوال؟

المعطف الآخر: عند الفرنسيين شيء آخر هناك société mon cher . وهذا عندنا مستحيل. فالمؤلفان عندنا بلا ثقافة كلياً. معظمهم تعلّم في مدرسة دينية. فتراه ميّالاً إلى السكر وفاجراً في نفس الوقت. كان يزور خادمي أيضاً أحد هؤلاء المؤلفين. فمن أين تأتيه مفهوم المجتمع الجيد؟

(ينصرفان).

سيدة راقية (بصحبة رجلين أحدهما في بدلة فراك والآخر في بزة رسمية): ولكن ما هؤلاء الناس، ما هذه الشخصيات المقدّمة! على الأقل لو كان بينهم واحد جذاب... ولماذا لا يكتبون عندنا مثلما يكتب الفرنسيون، مثل ديوما مثلاً والآخرين؟ أنا لا أطالب بنماذج للفضيلة، مثّلوا لي امرأة أضلّت سواء السبيل، بل وحتى خانت زوجها، ولنقل استسلمت لحب غاية في العيب والاستهجان، ولكن مثلوها بشكل جذاب، يثير عطفي عليها، وحبي لها... أما في هذه المسرحية فجميع الشخصيات أحدها أبغض من الآخر.

الرجل في البزّة الرسمية: نعم، مبتذل، مبتذل.

السيدة الراقية: قل لي لماذا كل شيء عندنا في روسيا ما يزال مبتذلاً بهذا الشكل؟

الرجل في بدلة الفراك: فيما بعد، يا روحي، نعرف سبب الابتذال. ينادون الآن على عربتنا.

(ينصرفون)

(يدخل ثلاثة رجال دفعة واحدة).

الأول: ولماذا لا نضحك؟ ممكن أن نضحك. ولكن أي ضحك على موضوع استغلال النفوذ والعيوب؟ ما وجه السخرية هنا؟

الثاني: ولكن مم نضحك؟ من الفضائل، من مكارم الإنسان؟

الأول: لا، ولكن هذا ليس موضوعاً للكوميديا، يا عزيزي! هذا يمس الحكومة، على نحو ما، وكأنما لا توجد مواضيع أخرى يمكن الكتابة عنها؟

الثاني: ماهي المواضيع الأخرى؟

الأول: وهل قلّت المصادفات الدنيوية المضحكة؟ طيب، لنضرب مثلاً أنني خرجت للتنزه في جزيرة ابتيكارسكي، ولكنني أجد سائق عربتي قد أخذني إلى ناحية فيبورغ أو إلى دير سمولني. وهل المفارقات المضحكة قليلة؟

الثاني: يعني تريد أن تنفي عن الكوميديا أية دلالة جدية. ولكن لم يشرّع القانون الذي لا غنى عنه؟ هناك كثرة من الكوميديات على الذوق الذي ترغب فيه. ولماذا لا يسمح بوجود اثنتين أو ثلاث من مثل هذه الكوميديا التي مثلوها الآن؟ وإذا كان يعجبك الكوميديات من النوع الذي تتحدث عنه فما عليك إلا أن تذهب إلى المسرح فإنك سترى كل يوم مسرحية يختبئ فيها شخص تحت المقعد، وآخر يجره من رجله من مخبئه.

الثالث: ولكن يا سادة، ليس هذا المقصود، لكل شيء حدوده. وهناك أشياء لا يجوز، إذا صح القول، الضحك منها، أشياء مقدسة إلى حد معين.

الثاني: (مع نفسه، بسخرية مريرة). هذا ما يحصل دائماً في الدنيا: تضحك على النبيل حقاً، على ما يمثل مقدسات النفس

السامية فلا تجـد مدافعاً، وتضحك على الفاسـد، الرذيل، الوضيع، فإذا بالجميع يهتفون: «إنه يضحك على المقدسات!».

الأول: هــا أنا أرى أنك الآن مقتنع، فأنت لا تتفوه كلمة واحدة. صدقنـي لا بد من الاقتناع، فإنها الحقيقـة. أنا نفسي رجل منصف، وأقول ليست كما... ولكن هذا ليس من شأن المؤلف، ليس موضوعاً للكوميديا. (ينصرفان).

الثـاني (مع نفســه): بصراحة ماكنت سأقبل بـأن أكون في مكان المؤلـف، مهما يكن من شيء. أعوذ بـالله! إذا تناول مواضيع دنيوية قليلة الأهمية قال الجميع: «يكتب سخافة، وليس له أي هدف خلقي عميق» وإذا تنــاول موضوعاً فيه هدف خلقي جدي نوعاً ما، قالوا: «هذا ليس شأنه، دعه يؤلف سفاسف!»...

(ينصرف)

(سيدة شابة من المجتمع الراقي برفقة زوجها).

الزوج: لا أظن عربتنا بعيدة، نستطيع أن نستقبلها قريباً.

السيـد ن (يقترب من السيدة): يـا سلام! جئتم لمشاهدة مسرحية روسية!

السيدة الشابة: وماذا في ذلك؟ يعني ليست لدي ذرة من الوطنية؟

السيـد ن: وإذا كان الأمر كذلك فأنت لم تشبعي وطنيتك كثيراً. أظنك تشتمين المسرحية؟

السيـدة الشابـة: لا، أبـداً، أرى فيهـا الكثير جداً مــن الصدق: ضحكت من كل قلبي.

السيـد ن: لأي شـيء ضحكت؟ ألأنك تحبّـين الضحك من كل ماهو روسيّ؟

السيــدة الشابة: لأنها فيها مــا يُضحك حقاً، ولأنها تعري النذالة

والوضاعـة، اللتين ستظلان نذالـة أو وضاعة مهما كان الثوب الذي تتحليان به، ولو أنهما لم تكونا في بلدة إقليمية، بل هنا، فيما حولنا، وهذا هو ما أضحكني.

السيد ن: قبل حين كانت سيدة ذكية جداً تقول لي إنها ضحكت أيضاً، ولكن المسرحية مع كل هذا تركت في نفسها انطباعاً حزيناً.

السيـدة الشابة: لا أريـد أن أعرف بماذا شعـرت سيدتك الذكية جداً، ولكـن أعصابي ليست حسّاسة جداً، وأنـا دائماً مسرورة من الضحـك مما هو مضحك ضمنياً. أعرف أن هناك طائفة منا مستعدة على أن تضحك من كل قلبها من أنف الإنسان الأعوج ولكن ليست لها القوة الخلقية على أن تضحك من نفس إنسان عوجاء.

(من بعيد تبدو سيدة شابة أخرى مع زوجها).

السيد ن: ها هي صاحبتك قادمة. وددت لو أعرف رأيها.

(السيدتان تمدان يديهما الواحدة للأخرى).

السيدة الأولى: رأيت من بعيد كيف كنت تضحكين.

السيدة الثانية: ومَنْ لم يضحك؟ الجميع كانوا يضحكون.

السيد ن: ألم تشعري بشعور محزن؟

السيـدة الثانية: بصراحة، شعرت بالحـزن بالضبط، أنا أعرف أن كل ذلـك صادق جداً، وأنا نفسي رأيـت الكثير مما يشبه ذلك، ومع كل هذا أحسست بثقل في صدري.

السيد ن: يعني لم تعجبك الكوميديا؟

السيدة الثانية: ولكن اسمـع: مَنْ يقول ذلك؟ لقد قلت لك إنني ضحكـت من كل قلبي، بل وأكثر من الآخرين. أعتقد أنهم اعتبروني مجنونة... . ولكن كان محزناً لي، حتى كنت أود لو استقر نظري على وجه واحد طيب. إن هذا الإفراط والإكثار في ما هو وضيع...

السيد ن: استمري، استمري!

السيدة الثانية: اسمع، انصح المؤلف بأن يصور ولو إنساناً واحداً نزيهاً، قل له إنهم يطلبون منه ذلك، وأن ذلك سيكون لطيفاً، حقاً.

زوج السيـدة الأولى: هذا بالـذات لا تنصح به، السيدات يهوين أن يكون هناك فارس حتماً، ليظل يكرر لهن كل كلمة عن النبل، ولو بأكثر الأساليب ابتذالاً.

السيـدة الثانية: لا، أبداً! ما أقلّ معرفتكم بنا! هذا من عندياتكم! أنتم بالفعل لا تحبون إلا الكلام والحديث عن النبل. لقد سمعت رأي أحدكم. شخص سمين صرخ صرخـة جعلت الجميع، على ما أظن، يلتفتـون إليه، قائـلاً إن كل ذلك افـتراء، وأن مثل هـذه الوضاعات والنذالات لا وجود لها بيننا. ومَنْ كان يقول ذلك؟ إن أوضع وأنذل إنســان، مستعد لبيـع روحه وضميره وكل ما لديـه. لا أريد فقط أن أذكر اسمه.

السيد ن: طيب، قولي من هو؟

السيدة الثانية: ولماذا تريد أن تعرف؟ ولكن لم يكن وحده. كنت أسمــع باستمرار كيف كانوا يصرخون قربنا: «هذه سخرية مقرفة من روسيـا، سخرية من الحكومة! وكيف يسمحون بذلك وماذا سيقول الشعـب؟» لماذا كانوا يصرخون؟ ألأنهــم كانوا يتصورون ويشعرون بذلـك بالفعل؟ آسـف، لا أظن! بل لأنهم يريــدون أن يثيروا ضجة، ليمنعـوا المسرحيــة، لأنهم، ربما وجـدوا فيها شبهاً بهــم، هؤلاء هم فرسانكم الحقيقيون، اللا مسرحيون.

زوج السيدة الأولى: أوه! بدأ يظهر عليك غيظ صغير!

السيدة الثانية: غيظ، غيظ بالذات! نعم، أنا مغتاظة، مغتاظة جداً. ولا يمكــن أن لا يشعر المرء بالغيظ، وهو يــرى النذالة تظهر تحت كل الأقنعة.

زوج السيدة الأولى: أي، نعم، كنت تودين أن يطلع فارس الآن،

ويقفز عبر هاوية، وتنكسر رقبته....

السيدة الثانية: معذرة.

زوج السيـدة الأولى: هذا طبيعي! ماذا تريد المرأة؟ تريد حتماً أن تكون في الحياة علاقات غرامية.

السيـدة الثانية: لا، ولا ولا! مستعـدة أن أكرر لا مئتي مرة! هذه فكرة مبتذلة قديمة، تفرضونها علينا دائماً. للمرأة من الشهامة الأصيلة أكثر مما للرجل. المرأة لا تقدر، ليس لها القوة على ارتكاب النذالات والحقـارات التـي ترتكبونها أنتم. المرأة لا تستطيـع أن تنافق، حيث تنافقـون أنتم، ولا تقدر التغاضي عن الوضاعات التي تتغاضون أنتم عنها. عندها من النبل ما يكفي لتفصح عن ذلك كله دون التلفت في الجانبـين لترى هل يـروق هذا لأحد أم لا لأن ذلـك يجب الإفصاح بـه. الخسة هي الخسة، مهما غطيتم عليهـا، وأي مظهر أعطيتموها. ستبقى خسة، خسة، خسة!

زوج السيدة الأولى: ولكني أراك قد غضبت من كل النواحي.

السيدة الثانية: لأننـي صريحة، ولا أستطيع التحمل حين يقولون كذباً.

زوج السيدة الأولى: طيب، لا تغضبي، وهاتي يدك! كنت أمزح.

السيـدة الثانية: هاك يـدي، لست غاضبـة. (تخاطب السيد ن) اسمع، انصح المؤلف بأن يضيف للكوميديا شخصاً شريفاً نزيهاً.

السيد ن: وكيف سيفعل هذا؟ طيب، يضيف شخصاً نزيهاً، وإذا طلع هذا الشخص النزيه يشبه فارساً مسرحياً؟

السيـدة الثانية: لا، فـإن كان سيشعر بقوة وعمـق، فإن بطله لن يكون فارساً مسرحياً.

السيد ن: أظن أن ذلك ليس بالأمر السهل.

السيـدة الثانيـة: الأحسـن أن تقـول ببساطة إن مؤلفـك تنقصه العواطف القلبية العميقة والقوية.

السيد ن: و لم ذاك؟

السيدة الثانية: الذي يضحك دائماً وباستمرار ليست له عواطف رفيعـة جـداً، ولا يستطيـع التعرف على مـا يشعر به القلـب الرقيق وحده.

السيد ن: هذا حسن! يعني في رأيك أن المؤلف لا يمكن أن يكون إنساناً نبيلاً؟

السيـدة الثانية: ها أنت تفسّر الكلام بطريقة أخـرى. أنا لم أقل كلمـة واحدة تشير إلى أن الكوميـدي كان مفتقراً إلى النبل والإدراك الواعـي للشرف بكل مافي هذه الكلمة من معنـى. بل قلت فقط إنه غير قادر علـى... أن يذرف دمعة صادقـة، وأن يحب بقوة، وبكل أعماق قلبه.

زوج السيـدة الثانيـة: ولكـن كيـف تستطيعـين أن تثبتي قولك هذا؟...

السيـدة الثانية: أستطيـع، لأنني أعرف. كل الذيـن ضحكوا أو كانوا ساخرين، كانوا جميعاً مغرورين. كلهم تقريباً أنانيون. أنانيون شرفاء، بالطبع، ولكنهم أنانيون، على أية حال.

السيد ن: يعنـي، أنت تفضلين كلياً ذلك النوع من التأليف الذي لا يعرض إلا عواطف الإنسان الرفيعة؟

السيدة الثانية: نعم، بالطبع! أنا دائماً أسمو بها، وأؤمن إيماناً أكبر بمثل هذا المؤلف، صراحة.

زوج السيـدة الأولى: (مخاطبـاً السيـد ن) ألا تـرى الآن؟ نفـس النتيجـة هذا هو ذوقهن. أكثر التراجيديات ابتذالاً هي، بالنسبة لهن، أسمى من أحسن كوميديا، لمجرد أنها تراجيديا....

السيــدة الثانية: اسكــت. سأغضــب ثانية (تخاطــب السيد ن) طيب، قل لي أليس كلامي صحيحاً. لأن روح الكاتب الكوميدي لا بد أن تكون باردة حتماً؟

زوج السيــدة الثانية: أو حارة، لأن الطبع السريع التهيّج يثير أيضاً السخريات والانتقادات الهجائية.

السيــدة الثانية: طيــب، أو سريعــة التهيج، ولكن مــا يعني هذا؟ هذا يعنــي أن سبب هذه المؤلفــات كانت دائماً الــروح الصفراوية. التصلّب، السخــط وقد تكون لها تبرير من جميــع النواحي. ولكن لا دليــل على أن ذلك وليد الحب الرفيع نحــو الإنسانية، وليد الحب بصفة عامة. أليس صحيحاً؟

السيد ن: هذا صحيح.

السيدة الثانية: طيب قل لي أليس مؤلف الكوميديا بهذه الصورة؟

السيــد ن: كيف أقول لكِ؟ أنــا لا أعرفه معرفــة قريبة، لأستطيع أن أحكــم على روحه. ولكن حــين أ تمثل إلى ماسمعت عنه فلابد أن يكون أنانياً أو رجلاً سريع التهيّج جداً.

السيدة الثانية: ألا ترى أنني كنت على معرفة جيدة بذلك؟

السيــدة الأولى: لا أعــرف السبب، ولكنني لا أحــب أن يكون أنانياً.

زوج السيدة الأولى: هذا هو خادمنا قادم، يعني أن عربتنا جاهزة وداعاً، (يصافح السيدة الثانية) ألا تأتون إلينا؟ تشربون الشاي عندنا؟

السيدة الأولى (منصرفة): أرجوكم!

السيدة الثانية: بالتأكيد.

زوج السيدة الثانية: أظن عربتنا أيضاً جاهزة

(ينصرفان وراءهما)

(يدخل مشاهدان).

الأول: أريـد أن تفسّر لي، إذا أخذت أي حـدث أو شخصية أو نمـوذج على انفـراد وجدت كل ذلـك صحيحاً، حيـاً، مأخوذاً من الواقـع، أمـا إذا أخذتهـا مجتمعة بدت لـك مضخّمة، مبالغـاً فيها، كاريكاتورية إلى درجـة أنك تسأل نفسك لدى مغادرة المسرح: هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً؟ ومع ذلك فليسوا هم أشراراً.

الثـاني: ليسوا أشراراً على الإطلاق. بل ينطبق عليهم المثل القائل: «ليس بالشرير ولكنه على النصب قدير»

الأول: ثـم هناك شـيء آخر. أليس هذا التراكـم المضخم، هذا الإفراط هو نقيصة الكوميديـا؟ قل لي أين ذلك المجتمع الذي يتألف مـن هؤلاء الناس فقط، وليس فيه، إن لم نقل النصف، أو على الأقل، جـزء يسير من الناس الأسوياء؟ وإذا كانت الكوميديا يجب أن تكون لوحة ومرآة لحياتنا الاجتماعية، فيجب أن تعكسها بكل حقيقتها.

الثـاني: أولاً، في رأيـي أن هـذه الكوميديا ليسـت لوحة مطلقاً، بـل صورة إيضاحية بالأحرى، أنـت ترى أن المشهد ومكان الحدث مثاليـان. وإلا لمـا كان المؤلـف سيأتـي بأخطاء واضحـة ومفارقات تاريخيـة، ولما وضع على لسان بعضـ الأشخاص أقوالاً لا تعود لهم سواء من حيث طبيعتهـم، أو من حيث مرتبتهم ومنصبهم. الانفعال الأول فقـط هو الذي شخص ما ليس له أي ظل لشخصية معينة، وما يعـود لهذا القـدر أو ذاك إلى الناس كلهم. إن هـذه الكوميديا مكان تجميـع. من كل أصقاع روسيا تقاطرت إليها الشذوذات عن الحقيقة والضـلالات وأعمال استغـلال النفوذ لتخدم فكـرة واحدة، وهي إثارة النفور النبيل القـوي في المشاهد إزاء كل ماهو وضيع. ومما زاد هـذا الانطباع قوة أن أي واحد مـن الأشخاص الممثلين على المسرح لم يفقـد مظهره الإنساني. فإن الجوهر الإنساني يتبدّى في كل مكان.

وهذا ما جعل خفقــان القلب أعمق. والمشاهد، وهو يضحك، يجد نفســه يلتفت إلى الوراء دون أن يدري، وكأنمــا يشعر بأن ما ضحك منــه قريــب إليه، وأن عليه أن يظل متيقظــاً في كل لحظة حتى لا ينفذ إلى روحــه. ولعــلّ أضحك ما يوجــه إلى المؤلف مــن انتقادات هو: «لماذا شخوصه وأبطاله غــير جذابين» في حين أنه استخدم كل شيء لينفرعنهم. ولكن لو كانت الكوميديا تضم ولو شخصاً واحداً نزيهاً، ومصــوّراً بكل ما له من جاذبية، لتحوّل الجميع قاطبة إلى جانب هذا الشخص النزيه، ولنسوا كل شيء عن أولئك الذين أرعبوهم الآن هذا الرعــب. ولربما ما كانت هذه الشخوص ستبقى في خيال المشاهدين باستمــرار أناساً أحيــاء، إلى نهاية المسرحية. ولما تولــد لدى المشاهد شعور بالحزن، ولما قال «هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً؟».

الأول: ولكن ذلك، على أية حال، لا يفهم دفعة واحدة.

الثــاني: طبيعي جــداً. أن المغزى الضمني يُدرك دائمــاً فيما بعد، كلما كانــت الشخوص التي يتجسد فيها ويتــوزع بينها أكثر حيوية وأشد سطوعاً كلما صار الانتباه إلى هذه الشخوص أعمّ وأشمل. إن محصلة الإبداع ومغــزاه لم يتكونا إلا بعد صياغتها سوية. ولكن فهم هذه المفردات وتوضيبها بسرعة، وقراءتها بنظرة شاملة ودفعة واحدة لا تتيســر لكل إنســان. وحتى ذلك الحين ولوقــت طويل سيظل هذا الإنســان يرى المفردات فقط. وسترى، وأنــا أقول لك ذلك مقدماً: قبل كل شيء ستغضــب كل بلدة إقليمية في روسيا، وتؤكد بأن ذلك هجاء حاقد، افتراء مبتذل وضيع موجّه إليها بالذات.

(ينصرفان)

موظف: هذا افتراء مبتذل، وضيع. هذا هجاء، طعن!

موظــف آخــر: الآن، إذاً، لم يبق أي شــيء، لا حاجة إلى قوانين، ولا حاجــة إلى وظيفة. ولا حاجة إلى البزة الرسمية التي عليَّ ويجب

رميها. هي الآن خرقة.

(يركض شابان).

أحدهما. أوه، الجميـع تملكهم الغضب، سمعت من الأحاديث، مـا يجعلني، إذا نظرت إلى أي إنسـان، أن أحدس ما يفكر في نفسه عن المسرحية.

الآخر: طيب، ماذا يفكر هذا؟

الأول: الذي يضع ذراعه في كم معطفه؟

الآخر: نعم.

الأول: هـذا يفكـر «على مثل هذه الكوميديـا تستحق النفي إلى نيرتشينسك[1]....» على كل حـال، يبدو أن المشاهدين في طبقات المسرح العليا أخذوا يخرجـون. الظاهر أن الفودفيل انتهى. سيتدفق عامة الناس الآن لنخرج.

(ينصرفان).

(يتزايـد الضجيج، وتصـدر كركبة الأرجل مـن جميع السلالم. تراكض القفاطـين، والمعاطف المدبوغـة، والقلنسـوات النسائية، وقفاطـين التجـار الألمانيـة الطويلـة، والقبعات الثلاثيـة، والقبعات المرّيشـة، والمعاطـف مـن شتـى الأصنـاف، اعتياديـة وعسكريـة ومستهلكـة وذات ياقـات فرائية. الجمع يدفع سيـداً يضع ذراعه في ردن معطفـه، فيتنحى السيد، ويواصل لباس معطفه في ناحية. يظهر في الحشـد سادة وموظفون من كل الأنـواع والأصنافز خدم في بزة خـدم يزيحون الناس عـن طريق سيداتهم، تردد صيحـة نسائية: «يا أولياء، حصروني من كل الجهات»)

(١) منطقة في سيبيريا ، حيث نفي الديسمبريون. المترجم.

موظف شاب ذو طبع مراوغ. (يتقدم من السيد الذي يلبس معطفه). يا صاحب السعادة، اسمحوا لي بأن أسندكم!

السيد ذو المعطف: آه، مرحباً، أنت هنا، جئت لتشاهد المسرحية؟

الموظف الشاب: نعم، يا صاحب السعادة. مسلية بملاحظاتها الدقيقة.

السيد ذو المعطف: هراء! ليس فيها ما يُسلي.

الموظف الشاب: هذا صحيح، يا صاحب السعادة، ليس فيها ما يسلّي إطلاقاً.

السيد ذو المعطف: مثل هذه الأشياء تستحق الجلد، لا الثناء.

الموظف الشاب: هذا صحيح، يا صاحب السعادة.

السيد ذو المعطف: إنهم يسمحون للشباب بالدخول إلى المسرح. لا أراهم يجنون من ذلك فائدة كبيرة. ها أنت مصلاً، ستذهب إلى دائرتك غداً، وتغلظ القول بلا حياء، أليس كلامي صحيحاً؟

الموظف الشاب: غير ممكن، يا صاحب السعادة!... اسمح لي بأن أزيح الناس عن طريقكم! (يدفع هذا وذاك من الناس ويصيح على الجميع). يا هؤلاء، تنحوا، الجنرال قادم! (يقترب باحترام مبالغ من رجلين حسني الهندام). أيها السادة، اعملوا معروفاً، واجعلوا الجنرال يمرّ.

(الرجلان الحسنا الهندام ينتحيان ويفسحان الطريق).

الأول: ألا تعرف أي جنرال هو؟ ربما هو مشهور؟

الثاني: لا أعرف. لم أره من قبل.

موظف كثير الكلام (يتقدم منهما من الخلف): مجرد مستشار مدني، مسجل على الدرجة الرابعة بأحقيته. يالها من سعادة! في خمسة عشر عاماً من الخدمة منح وسام فلاديمير، وآنّا، وستانسلاف،

وثلاثة آلاف روبل مرتباً، وألفين إضافة للمصروفات الجانبية، ثم ما يطلع له من المجلس، ومن اللجنة، ومن الدائرة.

الرجلان الحسنا الهندام (أحدهما للآخر): لننصرف!

(ينصرفان)

الموظف الكثير الكلام: أظنهما مدللين من أمهما. ربما يشتغلان في نِظارة الخارجية. أنا لا أحب الكوميديا، ذوقي يميل إلى التراجيديا أكثر. (ينصرف).

صوت من الزحام: ياه، ما أكثر الناس!

ضابط (يشق طريقه متأبطاً ذراع سيدة): هاي، يا أبا لحية، ما هذا التدافع؟ ألا ترى السيدة؟

التاجر (متأبطاً ذراع سيدة): عندنا أيضاً سيدة.

صوت من الزحام: هاهي استدارت، هل تراها؟ ازدادت قبحاً، ولكن قبل ثلاثة أعوام....

أصوات متنوعة: وثلاث قطع نقدية، تسمع، أخذت منه البقية مسرحية حقيرة شنيعة! مسرحية مسلية! مالك تدوس على خناقي؟

صوت من أحد طرفي الزحام: كل هذا سخافة! أين أمكن أن يحدث هذا؟ مثل هذا لا يمكن أن يحدث إلا في جزيرة تشوكوتكا.

صوت من الطرف الآخر: مثل هذا الحادث بالضبط حدث في بلدتنا. من المحتمل أن يكون المؤلف قد سمع به، إن لم يكن نفسه موجوداً هناك.

صوت التاجر: ولكنه هنا لا مؤاخذة، يُشدِّد على الناحية «الخلاقية»! أكثر، إذا صح القول. ثم ما أكثر ما يحدث في الدنيا، في الحقيقة! هذا قد يقع للرجل النزيه أيضاً، لا مؤاخذة... أما من الناحية «الأخلاقية» فيحصل للنبلاء أيضاً.

صوت سيـد مشجّع: لابد أنه مؤلف مـكّار غشاش، جرّب كل شيء، ويعرف كل شيء!

صوت موظف مغتاظ: ولكنه مجرّب، على ما يبدو. ماذا يعرف؟ لا يعـرف شيئاً إطلاقـاً! إنه يكذب، يكذب. كل مـا كتبه، كل ذلك أكاذيب. والرشاوى لا تؤخذ بهذا الشكل، إذا أردنا الحقيقة....

صـوت موظـف آخر مـن الزحام: ما لـك تكـرّر: «مضحكة، مضحكة»! هل تعرف لماذا هي مضحكة؟ كلها عن أشخاص معينين. عرض على المسرح جداته وعماته. ولهذا فهي مضحكة.

صوت مجهول: إلحقوني، سرقوا المنديل!

(ضابطان يعرف أحدهما الآخر يتكلمان عبر الزحام).

الأول: ميشيل، إلى هناك؟

الثاني: إلى هناك؟

الأول: وأنا سأكون هناك أيضاً.

موظـف وجيه المظهر: لـو كان الأمر بيدي لمنعـت كل شيء. لا حاجـة إلى نشر أي شـيء. استفيدوا من التعليم، واقـرأوا، ولكن لا تكتبوا. كُتِب ما يكفي من الكتب ولا حاجة إلى المزيد.

صـوت من الجمهـور: إذا أنت وغد، فأنت وغـد على كل حال وحين لا تكونه لا أحد يضحك منك.

سيـد جميل مكتنـز (يتحـدث بحرارة مـع آخر دميـم قصير): الأخلاق، الأخلاق تعانين هذا هو أهم شيء!..

السيـد الدميـم القصير والـلاذع اللسان: ولكـن الأخلاق شيء نسبي.

السيد الجميل المكتنز: ماذا تعني بصفة «النسبي» هذه؟

السيـد الدميـم والـلاذع اللســان: أقصـد أن كل إنســان يقيس الأخلاق علـى نفسه. وأحد يرى الأخلاق أن يرفع الناس له قبعاتهم عنـد التقائـه في الشارع، والآخـر يرى الأخـلاق في التغاضي عما يسرقـه هو، والثالـث يرى الخلاق في الخدمات التـي تقدم لمحظيته. أليس من المألوف أني قـول أي واحد منا لمرؤوسيه بتعالٍ: «يا حضرة المحـترم، اسع إلى القيام بواجبك لما فيه خير ربك والقيصر والوطن». وتعالَ فكر بعد ذلك مع نفسك فيما هو هذا الخير. وعلى العموم هذا ما يحصل في الأقاليم، ولا وجود له في العواصم. أليس كذلك؟ وإذا صـار لأحد الأشخاص هنا بيتان فجـأة في ظرف ثلاث سنوات فما سببه؟ أظنه نزاهة لا غير أليس كذلك؟

السيـد الجميل المكتنز (جانباً): دميـم كالشيطان، ولكن له لسان الأفعى.

السيد الدميم اللاذع اللسان (يلكز ذراع رجل غريب عليه تماماً، مشـيراً إلى السيد الجميـل): أربعة بيوت في شـارع واحد، ارتفعت واحـداً جنب الآخر خـلال ستة أعوام! انظـر أي تأثير للنزاهة على مخلوق خامل. ها؟

الغريب (يبتعد مسرعاً): اعذرني، لم أسمع كل كلامك.

الدميم الـلاذع اللسان (يلكز ذراع جـاره الغريب عليه): كيف استشرى الطرش الآن في المدينة! إنه المناخ الرطب غير السليم يخلف أثره.

الجار الغريب: والزكام استشرى كذلـك! جميع أولادي أصيبوا به!

الدميـم اللاذع اللسان: نعم، الزكام والطرش. والتهاب اللوزتين أيضاً (يختفي في الزحام).

(حديث في مجموعة في ناحية)

الأول: يقولـون إن الحادث ذاته وقـع للمؤلف نفسه. قضى مدة طويلة في سجن إحدى البلدات.

سيـد في الطرف الآخر مـن المجموعة (يعلق علـى كلامه): لا، لم يكـن هـذا في سجن، بل في برج، وقـد رآه الذين مروا من هناك. يقولـون كان شيئـاً عظيماً. تصوّروا شاعراً علـى أعلى برج، وحوله جبال ومناظر خلاّبة، وهو ينشد الأشعار من هناك، أليست هذه ميزة خاصة بالشاعر؟..

سيد إيجابي: لابد أن يكون المؤلف ذكياً.

سيـد سلبي: ليس ذكياً أبداً أعرف أنه كان في وظيفة، وكاد يُطرد منها، لأنه لم يكن يعرف كتابة الرجاوات.

مجرد كذاب. دماغ فطن، فطن! ظلوا زمناً طويلاً يرفضون إعطاءه وظيفة. فماذا تتصورون؟ كتب رسالة إلى الوزير مباشرة. وأية رسالة! على طريق الإطناب والإسهاب. حالما بدأ بـ «يا صاحب المعالي...» حتى ســال القلم وســال.... وحبّر ثماني صفحــات. وعندما قرأها الوزير قال «شكراً، شكراً!، ها أنا أرى أن لك أعداء كثيرين: سأعينك رئيس قسم!» وهكذا انتقل رأساً من صنف الكتبة إلى رئيس قسم.

السيـد الطيب القلب (مخاطباً شخصاً آخـر بارد الأعصاب): الله يعلـم بمن يصدق الإنسان! هذا يقـول: كان في السجن، وذاك صعد على برج! وهذا طردوه من الوظيفة، وذاك أسندوا له رئاسة قسم!

السيد البارد الأعصاب: خذ الكلام على عواهنه؟.

السيد الطيب القلب: كيف على عواهنه؟

السيــد البــارد الأعصــاب: أقصد هــم أنفسهم لا يعرفـون ماذا سيسمعون مـن ألسنتهم بعد دقيقتين. اللسان يلوك الأخبار بلا رقابة مـن صاحبه. وصاحبه مرتاح يعود إلى البيت، وكأنه شبع من اللوك.

وفي اليـوم التالي يكون قد نسي ما لفقه. يتصوّر أنه سمعه من آخرين فينشره في المدينة كلها.

السيد الطيب القلب: ولكن من المخجل أن تكذب دون أن تحس أنت بذلك.

السيـد البـارد الأعصـاب: وهناك حساسـون أيضاً هنـاك مَنْ يحسـون بأنهم يكذبون، ولكن يرونه ضـرورة للحديث، على المثل القائل: السنابل زينة الحقل، والكذب زينة الحديث.

سيـدة من مجتمع وسط: ولكن لابد أن يكـون هازئاً شديد الحقد هـذا المؤلـف! لا أريد بصراحة أن تقـع عيناه عليّ. فقـد يلحظ شيئاً مضحكاً فيّ.

سيد ذو اعتبار: أنا لا أعرف أي إنسان هو. هذا، هذا، هذا...... لا شيء مقدس عند هذا الرجل. اليوم يقول هذا الموظف سيئ. وغداً سيقول الله غير موجود. بين هذا وذلك خطوة واحدة.

سيـد ثان: استهزاء! ولكن لا يجوز المـزاح بالاستهزاء. هذا يعني هـدم كل احترام. هذا معناه. وبعد هذا كله سيضربني أي شخص في الشـارع ويقول: «إنهم يضحكون منكـم، فأنت تحمل نفس الرتبة، تلق هذه الصفعة إذاً!»، هذا معناه.

سيـد ثالث: بالطبـعَ هذا شيء خطير! يقولون «هـذه ألعوبة، أمر تافـه، تمثيل مسرحي». لا، هذه ليست ألاعيب بسيطة، ويجب النظر إليـه باهتمام صارم، مثـل هذه الأشياء توجب النفـي إلى سيبيريا. لو كانـت لي سلطة لجعلت هـذا المؤلف لا ينطق بحـف، ولأرسلته إلى مكان لا يرى فيه حتى ضوء النهار.

(تظهـر جماعة من الناس مـن نمط غريب، ولكنهـم ذوو مظهر نبيل، وملبس معتبر).

الأول: الأحســن أن نقــف هنا، حتى ينجلـي الزحام، ما هذا في الحقيقــة! ضجــة وتصفيق وكأن في الأمــر معجزة أو شيئــاً لا يعرفه إلا الله. مسرحيــة تافهة، فارغة المضمــون، ولكنهم يثيرون الضجيج ويصرخــون، ويدعون المؤلــف إلى الظهور على المســرح. فأي شيء هذا!...

الثاني: المسرحية. على العموم، أشاعت المرح، وأثارت التشويق.

الأول: أي، نعم، أشاعت المرح، مثلما يثيره أي عبث. ولكن لماذا تسبب هذه الصرخات والأقاويــل؟ يتناقشون، وكأنما في شيء مهم، ويصفقون.... ولكن مــا هذا؟ طيب، أنا أفهم، إذا كان على المسرح مغــن أو راقصة. هــذا مفهــوم، لأن الناس تعجب بالفــن، باللدانة، بالخفة، بالموهبة الأصيلة. ولكن ماذا هنا؟ يصيحون: «أديب! أديب! أديــب! كاتب!» وأي شيء هو الكاتب؟ كلمة نابهة ترد هنا وهناك، وتصويــر منقوش مــن الواقع.... وأي جهد في هــذا؟ ماذا فيه؟ هي أباطيل لا أكثر.

الثاني: صحيح، إنها مسرحية تافهة.

الأول: خــذ الراقص، مثلاً، فــن، على كل حــال. ولا تستطيع أن تقــوم بما يقوم به. قــد تكون لدي الرغبة، مثــلاً، ولكن رجليّ لا تستجيبان لي. أريد أن أقفز، ولكن هيهات. ولكن الكتابة ممكنة حتى لغــير المتعلم. أنا لا أعرف مَنْ هذا المؤلف، ولكنني سمعت أنه إنسان جاهل تماماً، ولا يعرف أي شيء. يبدو أنه مطرود من وظيفته.

الثــاني: ولكــن لابد أن يعــرف شيئــاً. فبدون ذلــك يستحيل أن يكتب.

الأول: أوه، يا صاحبي وماذا يمكن أن يعرف؟ أنت نفسك تعرف ماهو الأديب: أفرغ إنسان. العالم كله يعرف أنه لا يصلح لأي شيء. حاولوا استخدام هؤلاء الناس، وتركوهم. طيب، قل لي، ماهذا الذي

يكتبونه؟ سفاسف، وأباطيل! أنا إذا أردت كتبت حالاً، وأنت أيضاً تقدر، وهو يقدر، وأي شخص يقدر.

الثاني: نعم، بالطبع، و لم لا، ذرة من العقل ونقدر.

الأول: حتى العقل لا حاجة له. وما علاقة العقل هنا؟ هذا مجرد تلفيق أباطيل، قد تكون هناك حاجة إلى العقل إذا كان الأمر يتعلق بعلم ودراسة، مثلاً، بمادة لا تعرفها بعد، أما هذا، فأي شيء هو؟ يعرفه كل مَنْ هب ودب. تراه في الشارع كل يوم. وما عليك إلا أن تجلس عند النافذة، وتكتب كل ما يحصل. وهذا كل مافي الأمر!

الثالث: هذا صحيح. تصوّر، يضيعون الوقت على مثل هذه السخافة!

الأول: ضياع الوقت بالذات، ولا أكثر! هؤلاء صانعو أباطيل وخزعبلات. وما عليك إلا أن تمنعهم من أن يمسكوا الريشة والمحبرة في أيديهم. على كل حال، الناس يخرجون، فلنذهب! ضجيج، وصياح، وتشجيع! بينما لا شيء غير التفاهة! أباطيل!

(ينصرفون. انفضّ الزحام وبعض المتأخرين يركضون).

موظف طيب القلب. على كل حال، لو مثلوا لنا شخصاً واحداً نزيهاً! ولكن الجميع نصابون، ونصابون!

واحد من الشعب: اسمع، انتظرني عند مفرق الطريق! وسآخذ أنا قفازي بسرعة.

واحد من السادة (ينظر في ساعته): الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً. لم أتأخر قط في الخروج من المسرح هذا التأخير. (ينصرف).

موظف متأخر: ضاع الوقت هباء! لا، لن أذهب إلى المسرح بعد الآن! (ينصرف).

(الرواق يفرغ).

مؤلـف المسرحية (يتقدم): سمعت أكـثر مما كنت أنتظر. مجموعة شتـى من الأقوال! سعيـد ذلك الكوميدي الـذي يولد في أمة حيث المجتمـع لم يتكـوّر بعد في كتلـة واحدة جامـدة، و لم يتغلف بقشرة واحدة مـن النعرة القديمة التي تحصر أفـكار الجميع في قالب واحد، ومقياس واحـد، وحيـث لـكل إنسـان رأيـه، وكل إنسـان يخلق شخصيته بنفسه. تنوع كبـير في هذه الآراء، وتألق شامل لهذا العقل الروسـي الركين الصافي، سواء في الطمـوح النبيل لرجل الدولة، أو في التفـاني السامـي للموظف المنـزوي في صقع نـاء! أو في الجمال الرقيق للمـرأة الأريحية النفس! في الشعور الجمالي لهواة الفن! وفي الإحساس البسيط والأصيل للشعـب! وحتى في تلك الآراء السلبية الناكرة الكثير مما ينبغي أن يعرفه الكوميدي! أي درس حيّ هذا! نعم، أنـا مرتاح. ولكن لماذا يثقل الحزن على قلبي؟ من الغريب أن أحداً لم يلحـظ، مع الأسف، وجود أي شخص نزيه في مسرحيتي. بينما فيها شخص واحد نزيه شهم يظهر طوال المسرحية كلها. إن هذا الشخص النزيـه الشهم هو الضحك. كان شهماً، لأنـه عزم على المشاركة في التمثيل، على الرغم من الأهمية الضئيلة التي تُعطى له في الحياة. كان شهمـاً، لأنه عزم على المشاركة، على الرغم من أنه ألحق بالكوميدي صفة مهينة، صفة الأناني البارد، بل وجعل الآخرين يتشككون حتى في امتلاكـه العواطف القلبيـة الرقيقة. إن أ حـداً لم يقف إلى جانب الضحك هـذا. وأنا كوميـدي، خدمته بإخلاص، ولهـذا يجب أن أقـف إلى جانبه. إن الضحـك أكثر أهمية وأعمق ممـا يتصور الناس. وأنـا لا أعني ذلـك الضحك الذي يولـده التهيج المؤقـت، والمزاج الصفـراوي المرضـي، ولا ذلك الضحـك الخفيف الـذي يستخدم للتسليـة الرخيصة وإلهاء الناس. بل ذلـك الضحك النابع بكليته من طبيعـة الإنسـان الوضاءة، النابـع منها، لأن في قاعهـا يوجد ينبوعه المتدفـق أبداً، الضحك الـذي يعمق الموضوع، ويخـرج من الباطن ويجعل ما سيضيع حتماً يتألق ساطعاً، ولولا قوته النافذة، لما أ فزعت

الحيـاة الإنسانية هذا الفزع الرهيب بصغائرها وخوائها. ولما تضخم مـا يصادفه كل يوم من مزدري وتافه، وهو غير مكترث، لينمو أمامه بتلـك القوة الرهيبة، الكاريكاتوريـة تقريباً، ولما صرخ مرتعداً: «هل مـن المعقـول أن هناك مثل هـؤلاء الناس؟» بينما يوجـد، في وعيه الذاتـي، أناس أسوأ. لا. ليسـوا منصفين أولئك الذيـن يزعمون أن الضحـك يزعجهم. فالمزعج هو الكئيب وحده، أما الضحك فيبهج النفس. أشياء كثـيرة لو مثلت في عريها أزعجـت الإنسان، ولكنها ستثـير الطمأنينة في النفس لو نورتها قـوة الضحك. والذي كان من الممكـن أن ينتقم من الشرير سيتسامح معـه، إذا رأى حركات نفسه الدنيئة موضع إضحاك للناس. وليسوا على حق أولئك الذين يقولون بـأن الضحـك لا يؤثر في الذي يُشهر ضـده، والمحتال سيكون أول من يضحك مـن المحتال الذي يُمثّل على المسـرح. إن المحتال القادم قـد يضحك، ولكن ليس في مقدور المحتـال الذي عايش الأحداث الممثلة في المسرحية أن يضحك! فهو يسمع أنه صار لدى جميع الناس صورة ثابتة لا تتغير، وإن أية حركة وضيعة من جانبه تكفي لأن تعلق به هذه الصورة إلى الأبد. إن السخريات مخيفة حتى لمن لا يخاف أيّ شـيء في الدنيـا. أجل، إن النفس الطيبة مـن الأعماق وحدها قادرة على أن تضحك الضحك الطيب المشرق. ولكن الناس لا تستمع إلى قوة هذا الضحك الجبّارة فالمجتمع الراقي يقول: «كل ماهو مضحك وضيع»، والسمو لا يطلق إلا على ما ينطق بالصوت الصارم المتوتر. ولكن، أواه! كم يمرّ أمامنا كل يوم من الذين لا يستشعرون السمو في أي شـيء في الدنيا! فكل ما أبدعه الإلهام الروحي هو، بالنسبة لهم، سفاسف، وأباطيل. أعمال شكسبير عندهم أباطيل، خفقات الروح القدسية عندهم أباطيل. وأنا لا أقول ذلك ثأراً لكبرياء الكاتب المهانة التافهة، ولا لأن أعمالي الضعيفة وصفت قبل لحظات بالأباطيل، بل أرى عيوبي، وما يستحق العتاب والاستنكار، ولكن روحي السمحة لم تستطـع أن تتحمـل بلا اكتراث، حين وصفـت أكمل الإبداعات

بالسفاسف والأباطيل و لم يعترف نجوم المجتمع وأساطينه بغير صانعي الأباطيـل! روحي توجعـت، حين رأيت كم هـم كثـيرون هنا أيضاً، وسط الحياة نفسها، أولئك السُوْقة اللامبالين، الأنفس الميتة، المرعبين بـبرود روحهم، وعقم قلبهم الفارغ. توجعت روحي، حين لم يرف على وجوههم الخالية من العطف حتى طيف إحساس بما كان يجعل النفسـ العميقة الحب تذرف الدمـو ع السماوية، و لم يخمد لسانهم من تـرداد كلمته المستديمـة «سفاسف وأباطيـل»! أباطيل!.... وقد مرّت القرون، واندثرت المدن والشعوب، وامحت من وجه الأرض، وتلاشـى كل ماكان كالدخان، وهـذه «أباطيل» حيّـة، وتعاد حتى اليـوم، ويستلهمها القياصـرة الحكماء، والحـكام المتبصرون، الشيخ الجليـل، والشاب المفعم بالطموح النبيل. «أباطيل»!.. ولكن ها هي شرفـات المسارح وسلالمها تئـن، فقد اهتز كل شيء مـن الأسفل إلى فـوق، وتحول إلى شعور واحد، إلى لحظة واحدة، إلى شخص واحد، والتقـى جميع الناسـ، كالأخـوة، في عاطفة قلبية واحـدة، وينشد التصفيـق الجماعي الهادر نشيد الامتنان لذلك الذي غادر الدنيا منذ خمسمئـة عام. فهل تسمع هذا النشيد عظامه النخرة في القبر؟ وهل تـرد روحه التي عانت من شظف الحياة الفـظ؟ «أباطيل»! ... وهنا بين صفوف الحشد المتأثر رجـل سحقته المصيبة، ورهق الحياة الذي لا يحتمل، وهيأه اليأسـ للانتحار، حضر العرض، وطفرت الدموع المنعشـة المطهرة من عينيه فجأة، وخرج مطمئناً ومتصالحاً مع الحياة، يسترحم السماء بأن تمتحنه مرة أخرى ببلية وعذابات، لمجرد أن يعيش ويـذرف الدموع مرة أخرى من مثل هذه «الأباطيل». «أباطيل!»..

ولكن العـالم سيغفو بدون هذه «الأباطيل»، وتضحل الحياة، ويخيم علـى النفوس العفن والحمأة. «الأباطيـل»!.. ألا فلتبق مخلدة مقدسة في الأجيال القادمة أسماء الذين استلهموا هذه «الأباطيل» بإخلاص وعطف. ولتظل يد العناية الإلهية تبارك مبدعيها أبد الآبدين. وحتى في لحظـات المآسـي والمضايقات كانت تجد الحمايـة، قبل كل شيء،

لـدى أ نبل مـن في الدولة: لـدى العاهل المتوج الـذي كان يحميها بدرع مُلكه من علياء عرشه المنيع.

فسـر في طريقـك أكـثر حيويـة! ولا تتكـدر روحك مـن اللوم والعتـاب، ولكـن تقبـل بسماحة نفسـ الإشـارة إلى النقائص، ولا يحزنـك حتى لو أنكرت عليها الخلجـات السامية، وحب الإنسانية المقدس! إن الدنيا كالدوامة تتقلب فيها الآراء والأقوال دائماً. ولكن الزمـن يطحـن كل شيء. الـكاذب منهـا يتطاير كالقشـور، وتبقى الحقائـق الدامغة كالحبـوب الصلبة. وقـد يكتسب أهميـة بالغة في المستقبـل مـا كان يسمى تافهاً ومجرداً من المغـزى وقد تنشأ في عمق الضحك البارد الشرارات اللاهبة للحب الأبدي الجبار. ومَنْ يدري، فقـد يعترف الجميع فيمـا بعد بمفعـول القوانين التي تجعـل الإنسان المتكبر القوي تافهاً وضعيفاً عند البلية، ويشتد الضعيف بين النكبات ويصير كالعملاق. قد يعترفـون بموجب تلك القوانين ذاتها بأن: من يذرف الدموع القلبية الصادقة غالباً، يكون أكثر الناس ضحكاً، على ما يبدو!

***